مقتل

عليّ بن جبلة العكوك

obeikandl.com

obeikandl.com

ترجمته

قال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني[١]:

هو عليُّ بن جَبَلة بنِ عبدالله الأبناوي، ويكنى أبا الحسن، ويلقَّبُ بالعَكوَّك، من أبناء الشيعة الخُراسانية من أهل بغداد، وبها نشأ، وولد بالحربية من الجانب الغربي. وكان ضريراً، فذكر عطاء الملط أنه كان أكمه، وهو الذي يولد ضريراً، وزعم أهله أنه عمي بعد أن نشأ.

قصر شعره على أبي دُلف وحميد الطوسيّ:

وهو شاعر مطبوع، عذب اللفظ جزله، لطيف المعاني، مدّاح حسن التصرّف. واستنفد شعره في مدح أبي دُلف القاسم بن عيسى العجلي، وأبي غانم حميد بن عبدالحميد الطوسي، وزاد في تفضيلهما وتفضيل أبي دلف خاصة حتى فضل من أجله ربيعة على مضر، وجاوز الحدّ في ذلك، فيقال: إنّ المأمون طلبه حتى ظفر به، فسلَّ لسانه من قفاه؛ ويقال: بل هرب، ولم يزل متوارياً منه حتى مات ولم يقدر عليه؛ وهذا هو الصحيح من القولين، والآخر شاذ.

(١) كتاب الأغاني ج ١٩، ص (٢٣٣) دار صادر.

اختلافه إلى مجالس الأدب:

أخبرني أحمد بن عبيدالله بن عمار الثقفي قال: حدثني الحسين بن عبدالله بن جبلة بن علي بن جبلة قال: كان لجدي أولاد، وكان علي أصغرهم، وكان الشيخ يرق عليه، فجُدِر فذهبت إحدى عينيه في الجدري، ثم نشأ فأسلم في الكتّاب، فحذق بعض ما يحذقه الصبيان، فحمل على دابة ونثر عليه اللوز، فوقعت على عينه الصحيحة لوزة فذهبت؛ فقال الشيخ لولده: أنتم لكم أرزاق من السلطان، فإن أعنتموني على هذا الصبي، وإلا صرفتُ بعض أرزاقكم إليه. فقلنا: وما تريد؟ قال: تختلفون به إلى مجالس الأدب. قال: فكنّا نأتي به مجالس العلم ونتشاغل نحن بما يلعب به الصبيان، فما أتى عليه الحول حتى برع، وحتى كان العالم إذا رآه قال لمن حوله: أوسعوا للبنوي، وكان ذكياً مطبوعاً؛ فقال الشعر.

اتهم بانتحال قصيدته في أبي دُلف فنجح في الاختبار:

وبلغه أنّ الناس يقصدون أبا دلف لجُوده وما كان يُعطي الشعراء، فقصده، وكان يسمى العَكَوَّك، فامتدحه بقصيدته التى أولها:

ذاد ورد الغيِّ عن صدرهْ
وارعوى واللهو من وطرهْ

يقول فيها في مدحه:

يا دواء الأرض إن فسدت
ومديل اليُسر من عُسُرهْ

كل من في الأرض من عـــرب
بين باديه إلى حـــضـــرهْ

مـســتـعـيـر منك مكرمـة
يكتسيها يوم مفتخرهْ

إنما الدنيـــــا أبو دلف
بين مبداه ومحتضرهْ

فـــــإذا ولى أبو دلف
ولت الدنيـــــا على أثرهْ

فلما وصل إلى أبي دلف، وعنده من الشعراء وهم لا يعرفونه، استرابوه بها، فقال له قائده: إنهم قد اتهموك، وظنوا أن الشعر لغيرك، فقال: أيها الأمير، إن المحنة تزيلُ هذا ، قال: صدقت، فامتحنوه. فقالوا له: صف فرسَ الأمير، وقد أجَّلناك ثلاثاً، قال: فاجعلوا معي رجلاً تثقون به يكتب ما أقول. فجعلوا معه رجلاً، فقال هذه القصيدة في ليلته، وهي:

ريعت لمنشور على مفرقه
ذم لها عهد الصبا حين انتسبْ

أهدابُ شَيبٍ جُددٌ في رأسه
مكروهةُ الجدّة أضاء العُقبْ

أشرقن في أسود أزرين به
كان دُحاه لهوى البيض سببْ

واعـتـقن أيام الغـواني والصبـا
عن مـــيِّت مطلبُـــه حيُّ الأدبْ

لم يزدجـر مُـرعـوياً حـين ارعـوى
لكـن يدٌ لم تـتـــصل بمطّـلـبْ

لم أر كـالشـيب وقـارا يجـتـوى
وكـالشـبـاب الغض ظلاً يُسـتلبْ

فـنازلٌ لم يبـــتـــهج بقـــربه
وذاهبٌ أبقى جـــوى حين ذهبْ

كـــان الشـــبـــاب لمة أزهى بهـــا
وصـاحـبـاً حـرّاً عـزيز المصطَحبْ

إذ أنا أجـري سـادراً في غـيـــه
لا أُعـتب الدّهر إذا الدّهر عـتبْ

أبعـدُ شـأوَ اللهـوِ في إجـرائه
وأقـصـدُ الخَـودَ وراء المحـتـجبْ

وأذعـــر الربربَ عـن أطفـــاله
بأعـــوجيٍّ دُلفيٍّ المنتـــسبْ

تحـســبـــه من مـــرح العـزِّ به
مـسـتنفـراً بروعـة أو ملتـهبْ

مـــــرتـهـج يرتُّـج مـن أقـطـارِه
كالماء جالتْ فـيه ريحٌ فـاضطربْ

obeikandl.com

تحسبُه أقعد في استقباله
حتى إذا استدبرته قلت أكبْ

وهو على إهاقِه وطيّه
يقصرُ عنه المحزَمان واللببْ

تقول فيه حنب إذا انثنى
وهو كمتن القدح ما فيه حنبْ

يخطو على عوج تناهبن الثرى
لم يتواكل عن شظًى ولا عصبْ

تحسبها ناتئة إذا خطت
كأنها واطئة على الركبْ

شتا وقاظ برهتيه عندنا
لم يؤت من برٍّ به ولا حدبْ

يصانُ عصري حرّه وقُرّه
وتُقصر الخُورُ عليه بالحلبْ

حتى إذا تمتْ له أعضاؤه
لم تنحبسْ واحدة على عتبْ

رُمنا به الصيد فرادينا به
أوابد الوحش فأجدى واكتسبْ

محتدم الجري يباري ظله
ويُعرقُ الأحقبَ في شوطِ الخببْ

إذا تظنينا به صدَّقنا
وإن تظني فوته العَيرُ كذبْ

لا يبلغ الجهد به راكبُه
ويبلغ الريح به حيث طلبْ

ثم انقضى ذاك كأن لم يعنه
وكلّ بُقيا فإلى يوم عطبْ

وخلف الدهر على أبنائه
بالقدح فيهم وارتجاع ما وهبْ

فحمَّل الدهر ابن عيسى قاسماً
ينهض به أبلجُ فرّاجُ الكربْ

كرونق السيف انبلاجاً بالندى
وكغراريه على أهل الريبْ

ما وسنتْ عينٌ رأتْ طلعته
فاستيقظتْ بنوبة من النوبْ

لولا ابن عيسى القرمُ كنا هملاً
لم يؤتثلْ مجد ولم يُرعَ حسبْ

ولم يقمْ في يومِ بأسٍ وندى
ولا تلاقى سببٌ إلى سببْ

تكاد تبدي الأرضُ ما تضمرُه
إذا تداعتْ خيلُه هلا وهبْ

ويســـتـــهلُّ أمـــلاً وخـــيـــفـــةً
جـانبُـهـا إذا اســتـــهلَّ أو قطبْ
وهو وإن كـــان ابـنَ فـــرعيْ وائـل
فـبـمـسـاعيـه يـوافى في الحـسبْ
وبـعُـــــــلاه وعُـــــــلا ابـائـه
تحـوى غداة السبقِ أخطارُ القـصبْ
يـا زهـرة الدُّنيـــا ويـا باب النَّدى
ويا مـجيـر الرُّعب من يوم الرَّهبْ
لـولاك مـــا كـــان ســـدى ولا نـدى
ولا قـــريش عُـــرفَت ولا العـــربْ
خـــذها إليك من مـلـيء بالثنا
لكنّه غـــيـــــر مـلـيء بالنَّشَبْ
فـأثو في الأرضِ أو اسـتـفـرز بهـا
أنتَ عليـهـا الرأسُ والنّاسُ الذنبْ

قال: فلمّا غدا عليه بالقصيدة وأنشده إياها استحسنها من حضر، وقالوا: نشهد أن قائل هذه قائل تلك، فأعطاه ثلاثين ألف درهم. وقد قيل: إن أبا دلف أعطاه مئة ألف درهم، ولكن أراها في دفعات؛ لأنّه قصده مراراً كثيرة، ومدحه بعدّة قصائد.

المأمون يطلب سماع قصيدته في أبي دُلَف:

أخبرني الحسنُ بنُ عليّ الخفَّاف قال: حدثني محمد بن موسى بن حماد قال: حدثني أحمد بن أبي فنن قال: قال عبدالله ابن مالك: قال المأمون يوماً لبعض جلسائه: أقسم على من حضر ممن يحفظ قصيدة علي بن جبلة الأعمى في القاسم بن عيسى إلا أنشدنيها، فقال له بعض الجلساء: قد أقسم أمير المؤمنين، ولا بدّ من إبراز قسمه، وما أحفظها، ولكنّها مكتوبة عندي. قال قم فجئني بها، فمضى وأتاه بها، فأنشده إياها وهي:

ذاد ورد الغيِّ عن صدَرِه
وارعوى واللهوُ من وطرهْ

وأبت البكاءَ له
ضحكاتُ الشيبِ في شعرِهْ

ندمي أنّ الشبابَ مضى
لم أبلّغه مدى أشَرِهْ

وانقضتْ أيّامُه سَلَما
لم أجدْ حولاً على غِيَرِهْ

حسرت عنّي بشاشتُه
وذوى المحمودُ منْ ثمرهْ

ودمٍ أهدرتُ من رشأ
لم يُرد عقلاً على هدرهْ

فـــأتتْ دونَ الصِّـــبـــا هنةٌ
قـلـبـتْ فُـــــوقي عـلـى وتـرِهْ

جـــارتا لـيـس الشـــبـــابُ لمن
راح مـــحـنيّـــاً على كِـبـــرهْ

ذهبتْ أشـــيـــاء كنتُ لـهـــا
صـــارَها حـلـمـي إلى صـــورِهْ

دعْ جـــدا قـــحطانَ أو مُـــضـــرٍ
في يمانيـــه وفي مـــضـــرِهْ

وامـــتـــدحْ مـنْ وائـل رجـــلاً
عـــصـــرُ الآفـــاق في عـــصَـــرِهْ

المنايا في مـــقـــانبـــه
والعـطايا في ذرا حُـــجـــرهْ

مـلـكٌ تـنـدى أنـامـلُـه
كـــانبـــلاج النَّوء من مطرهْ

مـــســـتـــهل عن مـــواهبـــهْ
كـــابتـــســـامِ الروضِ عن زهرهْ

جـــبلٌ عـــزَّت مناكـــبُـــهْ
أمـنتْ عـــدنانُ في ثغـــرِهْ

إنما الـدُّنـيـــــا أبـو دلـف
بين مـبـداهُ ومـحـتـضـرهْ

فـــــــــــإذا ولـى أبـو دُلـف
ولـت الـدنـيـــــــا عـلـى أثـرهْ

لـستُ أدري مـــــا أقـــــولُ لـه
غـــيـــرَ أنَّ الأرضَ في خـــفـــرهْ

يـا دواءَ الأرضِ إن فـــســـــدت
ومُـــديل اليُـســـرِ من عـــســـرهْ

كلٌّ مـن في الأرض مـن عـــــربٍ
بـين باديـه إلـى حـــــضـــــرهْ

مـــســـتـــعـــيـــرٌ منكَ مكرمـــةً
يكتـسـيـهـا يوم مـفـتـخـرِهْ

يقول فيها:

وزحـــــوفٍ في صـــــواهـلـهْ
كـصـيـاحِ الحـشـرِ في أثـرِهْ

قـــــدتَـهُ والموتُ مكتـــــمنٌ
في مـذاكـيـه ومـشـتـجـرِهْ

فـــــرمتْ جـــيـلـويـه منـه يد
طـوت المـنـشـــــور مـن نـظـرِهْ

زرتـهُ والخـــيـلُ عـــابسـةٌ
تحـملُ البـؤسى على عـقـرِهْ

obeikandl.com

خـــارجـــات تحت رايتـــهـــا
كـــخـــروج الطيـــرِ منْ وكـــرِهْ

وعلى النُّعـــمـــانِ عـــجت بـه
عـــوجـــةً ذادتـه عن صـــدرِهْ

غـمطَ النُّعـمـانُ صـفـوتَهـا
فـــرددتَ الصـــفـــوّ في كـــدرهْ

ولـقُـــــرقـــــورِ أدرت رحـــــاً
لـم تـكـنْ تـرتـدُّ فـي فـكـرهْ

قـــد تأنّيتَ البـــقـــاءَ له
فـــأبى المحـــتـــومُ من قـــدرِهْ

وطغى حـــتى رفـــعتَ له
خطة شنعـــاء من ذكـــرهْ

قال: فغضب المأمون واغتاظ، وقال: لست لأبي إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه.

أنشدها أبا دُلَف بعد قتل قرقور:

قال: ابن أبي فَنَن: وهذه القصيدة قالها عليّ بن جبلة وقصد بها أبا دلف بعد قتله الصعلوك المعروف بقرقور، وكان من أشد الناس بأساً وأعظمهم. فكان يقطع هو وغلمانه على القوافل وعلى القرى، وأبو دلف يجتهد في أمره فلا يقدر عليه. فبينما أبو دلف خرج ذات يوم يتصيّد وقد أمعن في طلب الصيد وحده إذا بقرقور

قد طلع عليه وهو راكب فرساً يشق الأرض بجريه، فأيقن أبو دلف بالهلاك، وخاف أن يُوليَ عنه فيهلك؛ فحمل عليه وصاح: يا فتيان! يمنةً يمنةً، يوهمه أنّ معه خيلاً قد كمنها له، فخافه قرقورُ وعطف على يساره هارباً، ولحقه أبو دُلف فوضع رمحه بين كتفيه فأخرجه من صدره، ونزل فاحتزّ رأسه، وحمله على رمحه حتى أدخله الكرَج.

قال: فحدثني من رأى رمح قرقور وقد أدخل بين يديه يحمله أربعة نفر. فلما أنشده عليّ بن جبلة هذه القصيدة استحسنها وسرَّ بها وأمر له بمائة ألف درهم.

شهرة القصيدة:

أخبرني عليُّ بنُ سليمان الأخفش قال: حدَّثنا محمد بنُ يزيدَ الأزديّ قال: أخبرني إبراهيم بن خلف قال: بينا أبو دلف يسير مع أخيه معقل، وهما إذ ذاك بالعراق، إذ مرّا بامرأتين تتماشيان، فقالت إحداهما لصاحبتها: هذا أبو دُلف، قالت: ومن أبو دُلف؟

قالت: الذي يقول فيه الشاعر:

إنّمـــا الدُّنيـــا أبو دُلفٍ
بين باديه ومـــحـــتـــضَـــرِهْ

فـــــــإذا ولَّـى أبـو دُلَـف
ولَّـت الـدُّنـيـــــا عـلـى أثـرِهْ

قال: فاستعبر أبو دلف حتى جرى دمعه، فقال معقلُ: ما لك يا أخي تبكي؟ قال: لأني لم أقض حقَّ علي بن جبلة. قال: أو لم تعطه مائة ألف درهم لهذه القصيدة؟ قال: والله يا أخي ما في قلبي حسرة تقارب حسرتي علي أني لم أكن أعطيته مائة ألف دينار. والله لو فعلت ذلك لما كنت قاضياً حقّه.

أبو تمام يعجب ببيت له:

حدثني الحسن بن عليٍّ قال: حدَّثنا محمد بن القاسم بن مهرويه قال: حدثني عبدُالله بن محمد بن جرير قال: أنشدت أبا تمام قصيدة علي بن جبلة البائيّة، فلما بلغت إلى قوله:

وردّ البيضَ والبيضَ
إلى الأغماد والحُجُبِ

اهتز أبو تمام من فرقه إلى قدمه، ثم قال: أحسن، والله لوددتُ أنَّ لي هذا البيت بثلاث قصائد من شعري يتخيّرها وينتخبها مكانه.

شروط المأمون في مدحه:

أخبرني عمي قال: حدَّثني أحمد بن أبي طاهر قال: حدَّثني أبو نزار الضبيُّ الشاعر قال: قال لي عليّ بنُ جبلة قلت لحُميد بن عبدالحميد الطُّوسيّ: يا أبا غانم، إني قد مدحتُ أمير المؤمنين بمدح لا يحسن مثله أحد من أهل الأرض، فاذكرني له. قال: فأنشدني، فأنشدته. قال: أشهد أنّك صادق، ما يحسن أحد أن

يقول هكذا. وأخذ المديح فأدخله إلى المأمون، فقال له: يا حُمَيَد، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثواباً لمديحه، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف وبين شعره فينا، فإن كان الذي قاله فيكما أجود ضربنا ظهره، وأطلنا حبسه، وإن كان الذي قاله فينا أجود أعطيناه لكلّ بيت ألف درهم، وإن شاء أقلناه. فقلت له: يا سيدي ومن أنا ومن أبو دلف حتى يمدحنا بأجود من مديحك! فقال: ليس هذا الكلام من الجواب في شيء، فاعرض ما قلت لك على الرجل. فقال: أفعل. قال عليُّ بنُ جبلة: فقال لي حميد: ما ترى؟ فقلت: الإقالة أحبّ إليَّ، فأخبرَ المأمون بذلك. فقال: هو أعلم، ثم قال لي حُميد: يا أبا الحسن أيَّ شيء يعني من مدائحك لي ولأبي دُلف؟ فقلت: قولي فيك:

لولا حُمَيدٌ لم يكن
حسب يُعدّ ولا نسبْ

يا واحد العرب الذي
عزَّت بعزته العرب

وقولي في أبي دُلف:

إنّما الدُّنيا أبو دُلف
بين باديه ومختضره

فإذا ولى أبو دُلف
ولَّت الدُّنيا على أثره

قال: فأطرق حُميد ثم قال: لقد انتقد عليك أميرُ المؤمنين فأجاد، وأمر لي بعشرة آلاف درهم وخلعة وفرس وخادم. وبلغ ذلك أبا دُلف فأضعف لي العطيّة، وكان ذلك في سَتر منهما، ما علم به أحد خوفاً من المأمون حتى حدَّثتك به يا أبا نزار.

يستحي من كثرة برّ أبي دُلَف:

أخبرني عليٌّ بنُ سليمان قال: حدَّثني محمد بنُ يزيدَ: قال: حدَّثني عليٌّ بن القاسم قال: قال لي عليّ بن جَبَلة: زرتُ أبا دُلَف، فكنتُ لا أدخل إليه إلا تلقاني ببرّه وأفرط، فلما أكثر قعدت عنه حياء منه. فبعث إليّ بمعقل أخيه، فأتاني فقال لي: يقول لك الأمير: لِمَ هجرتنا؟ لعلّك استبطأت بعض ما كان مني، فإن كان الأمر كذلك فإني زائد فيما كنت أفعله حتى ترضى. فدعوت من كتب لي، وأمللت عليه هذه الأبيات، ثم دفعتها إلى معقل، وسألته أن يوصلها، وهي:

هجرتك لم أهجركَ من كُفر نعمةٍ
وهل يُرتَجَى نَيل الزيادة بالكُفرِ

ولكنّني لما أتيـــــتُك زائراً
فأفرطت في برِّي عجزتُ عن الشكرِ

فـــمــلآن لا آتيكَ إلاّ مــسلّمــاً
أزورك في الشهرين يوماً وفي الشهرِ

فـإن زدتني برّاً تزايدتُ جَـفـوة

ولم تلقني طول الحياة إلى الحشرِ

قال: فلمّا سمعها معقل استحسنها جدّاً، وقال: جوّدت والله، أما إنّ الأمير ليُعجب بمثل هذه المعاني، فلمّا أوصلها إلى أبي دُلَف قال؟ للهِ دَرّه! ما أشعره، وما أرقّ معانيه! ثم دعا بدواة، فكتب إليّ:

ألا ربّ ضيفٍ طارق قد بسطتُه

وآنستُه قبل الضيافة بالبشرِ

أتاني يرجّيني فما حال دونه

ودون القرى من نائلي عنده ستري

وجدتُ له فضلاً عليَّ بقصده

إليَّ وبرّاً يستحقُّ به شكري

فلم أعدُ أن أدنيتُه وابتدأتُه

ببشرٍ وإكرامٍ وبرٍّ على برِّ

وزوّدتُه مالاً قليلاً بقاؤه

وزوّدني مدحاً يدومُ على الدّهرِ

ثم وجّه بهذه الأبيات مع وصيف يحمل كيساً فيه ألف دينار، فذلك حيث قلت له:

إنّما الدُّنيا أبو دُلف

بين باديه ومحتضَرِهْ

ردّه عبدالله بن طاهر:

أخبرني عمي قال: حدثني أحمد بن أبي طاهر قال: حدثني أحمد بن القاسم قال: حدثني نادر مولانا: أنّ علي بن جبلة خرج إلى عبدالله بن طاهر والي خُراسان، وقد امتدحه، فلمّا وصل إليه قال له: ألستَ القائل:

إنما الدُّنيا أبو دُلف
بين باديه ومحتضرهْ

فإذا وَلَّى أبو دُلَف
ولَّت الدُّنيا على أثرهْ

قال: بلى، قال: فما الذي جاء بك إلينا، وعدل بك عن الدُّنيا التي زعمتَ؟ ارجع من حيث جئت، فارتحل، ومرَّ بأبي دُلَف وأعلمه الخَبر، فوصله بما أرضاه. قال نادر: فرأيته عند مولاي القاسم بن يوسف، وقد سأله عن خبره فقال:

أبو دلف إن تلقه تلق ماجداً
جواداً كريماً راجح الحلم سيّدا

أبو دلف الخَيراتِ أنداهمُ يداً
وأبسط معروفاً وأكرم محتدا

تراثُ أبيه عن أبيه وجدِّه
وكلّ امرئ يجري على ما تعوّدا

ولستُ بشاكٍ غيرَه لنقيصةٍ
ولكنّما الممدوحُ من كان أمجدا

قصيدة في مدح حميد الطُّوسيّ:

قال مؤلف هذا الكتاب: والأبياتُ التي فيها الغناء المذكورة بذكرها أخبار أبي الحسن عليّ بن جبلة من قصيدة له مدح بها حُميداً الطُّوسيّ، ووصف قصره على دجلة وقال فيها بعد الأبيات التي فيها الغناء:

ليس لي ذنب سوى أنِّـ
ـي أُسميكَ خليلا
وأُناديكَ عزيزاً
وتناديني ذليلا
أنا أهواك وحالَيـ
ـك صَروماً ووَصولا
ثِق بوُدٍّ ليس يفنى
وبعهدٍ لن يحولا
جعل اللهُ حُميداً
لبني الدُّنيا كفيلا
ملك لم يجعل اللـ
ـه له فيهم عديلا

فـــــأقـــــامـــــوا فـي ذراه
مـطـمـــــــــئـنـين حُـلـولا

لا تـرى فـــيـــهـم مُـــقِـــلاً
يســـأل المُثـــري فُـــضـــولا

جـــادَ بـالأمـــوال حـــتى
علَّم الجُـــودَ البـــخـــيـــلا

وبـنـى الـفـــخـــرَ على الـفـــخـ
ـرِ بـنـاءً مـــســـتـطـيـــلا

صـــــار لـلـخـــــائـف أمـنـاً
وعـلـى الجُـــــودِ دلـيـــــلا

رثاء الطُّوسيّ:

ولما مات حُميد الطوسي رثاه بقصيدته العينية المشهورة، وهي من نادر الشعر وبديعه، وفي أوّلها غناء من الثقيل الأوّل، يقال: إنّه لأبي العَنبَس، ويقال: إنّه للقاسم بن زرزور:

أللدَّهر تبكي أم على الدَّهر تجـزعُ؟
ومـا صـاحـب الأيّام إلا مـفـجّعُ

ولو سَهَّلت عنك الأسى كان في الأسى
عـزاء مُـعـزٍّ لـلـبـيـب ومـقـنـعُ

تعـزَّ بما عـزَّيتَ غـيـرك إنّهـا
سـهـام المنايا حـائـمـات ووُقّعُ

أُصبنا بيوم في حُمَيدٍ لو انّه
أصابَ عروشَ الدَّهرِ ظلت تضعضعُ

وأدَّبنا ما أدّب الناسَ قبلنا
ولكنّه لم يبقَ للصبر موضع

ألم ترَ للأيامِ كيفَ تصرَّمتْ
به وبه كانتْ تُذادُ وتُدفَعُ

وكيف التقى مثوىً من الأرض ضيق
على جبلٍ كانتْ به الأرضُ تُمنعُ

ولمّا انقضتْ أيّامُه انقضتْ العلا
وأضحى به أنفُ النَّدى وهو أجدعُ

وراحَ عدوّ الدِّين جَذلانَ ينتحي
أمانيّ كانتْ في حَشاهُ تقطّعُ

وكان حُمَيد معقِلاً ركَعت به
قواعدُ ما كانتْ على الضيَّمِ تركعُ

وكنتُ أراه كالرزايا رُزِئتُها
ولم أدر أنّ الخلقَ يبكيه أجمعُ

حِمامٌ رماه من مواضع أمنه
حِمامٌ كذاك الخطب بالخطب يُقدعُ

وليس بغزو أن تصيب منية
حمى أختها أو أن يذلَّ المُمنَّعُ

لقـد أدركتْ فـينا المنايا بثـأرها
وحلَّت بخطب وهيُـه ليس يُرقَعُ

نَعـاءٍ حُـمـيـداً للسـرايا إذا غـدتْ
تـذاد بـأطـرافِ الـرِّاح وتـوزعُ

وللمـرهق المكروب ضـاقت بأمـره
فلم يدر في حوماتها كيف يصنع

وللبيض خلَّتها البُعول ولم يَدع
لهـا غـيـره داعي الصبـاح المفـزَّعُ

كأن حُميداً لم يقُد جيش عسكر
إلى عـسكر أشـيـاعـه لا تُروَّعُ

ولم يبعث الخيلَ المغيرةَ بالضحا
مـراحاً ولم يرجع بهـا وهـي ظلَّعُ

رواجع يحـملنَ النهـاب ولم تكن
كـتـائبُـه إلا على النّهبِ ترجعُ

هوى جبل الدنيا المنيعُ وغيثُها الـ
ـمـريعُ وحـاميـهـا الكمِّيُّ المشيعُ

وسـيفُ أمـيـر المؤمنين ورمـحُـه
ومفتاحُ بابِ الخطبِ والخطبُ أفظعُ

فـأقنعـه من مُلكِه ورباعـه
ونائله قـفـرٌ من الأرض بلقعُ

على أيّ شجوٍ تشتكي النفسُ بعده
إلى شجوه أو يذخر الدَّمعَ مَدمعُ

ألم تَرَ أنَّ الشمس حال ضياؤها
عليه وأضحى لونها وهو أسفعُ

وأوحشت الدُّنيا وأودى بهاؤها
وأجدبَ مرعاها الذي كان يُمرعُ

وقد كانت الدُّنيا به مطمئنةً
فقد جعلت أوتادها تتقلعُ

بكى فقدَه روحُ الحياةِ كما بكى
نداه النَّدى وابنُ السبيل المدفّعُ

وفارقت البيضُ الخدورَ وأبرزت
عواطلَ حسرى بعده لا تقنعُ

وأيقظَ أجفاناً وكان لها الكرى
ونامت عيونٌ لم تكن قبلُ تَهجعُ

ولكنّه مقدارُ يوم ثوى به
لكل امرئ منه نهال ومشرعُ

وقد رأب الله الملا بمحمد
وبالأصل ينمي فرعُه المتفرّعُ

أغرّ على أسيافِه ورماحِه
تُقسَّم أنفال الخميسِ وتُجمعُ

obeikandl.com

حوى عن أبيه بذلَ راحته النَّدى
وطعنَ الكُلى والزاعبيّة شرَّعُ

أبو تمّام والبحتريّ يأخذان من معانيه:

وإنّما ذكرت هذه القصيدة على طولها لجودتها وكثرة نادرتها، وقد أخذ البحتريّ أكثر معانيها فسلخه، وجعله في قصيدتيه اللّتين رثى بهما أبا سعيد الثغريّ:

انظر إلى العلياء كيف تضامُ

و:

بأيّ أسى تثنى الدموع الهوامل

وقد أخذ الطائي أيضاً بعض معانيها، ولولا كراهة الإطالة لشرحتُ المواضع المأخوذة. وإذا تأمّل ذلك منتقد بصير عرفه.

كرم حُميد سبب تجديده في مديحه:

أخبرني عمي قال: حدَّثنا أحمد بنُ أبي طاهر قال: حدَّثني أبو وائلة قال: قال رجل لعليّ بن جَبَلة: ما بلغت في مديح أحد ما بلغته في مديحك حُميداً الطُّوسيّ. فقال: وكيف لا أفعل وأدنى ما وصل إليّ منه أني أهديت له قصيدة في يوم نيروزٍ فسُرَّ بها، وأمر أن يحمل إليّ كلّ ما أُهديَ له، فحمل إليَّ ما قيمته مائتا ألف درهم، وأهديتُ له قصيدة في يوم عيد فبعث إليَّ بمثل ذلك.

وصف جيش عظيم:

قال أبو وائلة: وقد كان حُميد ركب يوم عيد في جيش عظيم ولم يُرَ مثله، فقال عليّ بن جبلة يصف ذلك:

غـــدا بأمـــيـــر المؤمنين ويُمنِه
أبو غانم غـدوَ النَّدى والسـحـائبِ

وضاقت فجاج الأرض عن كل موكب
أحـاط به مـسـتـعليـاً للمـواكب

كأن سُموّ النقع والبيضُ فوقهم
ســمــاوة ليل قُــرّنت بالكواكب

فكان لأهل العيد عيدٌ بنُسكهم
وكـان حُـمَـيـد عـيـدَهم بالمواهبِ

ولولا حُـمَـيـد لم تَبَلَّج عن النَّدى
يمينٌ ولم يُدرك غنى كسبُ كاسبِ

ولو ملَكَ الدُّنيـا لما كـانَ ســائلٌ
ولا اعتامَ فيها صاحبٌ فضلَ صاحبِ

له ضحكة تستغرق المال بالنَّدى
على عبسةٍ تُشجي القَنا بالترائبِ

ذهبتَ بأيّام العــلا فــارداً بهــا
وصـرَّمتَ عن مـسـعـاكَ شـأو المطالِبِ

وعَدَّلت مَيل الأرض حتى تعدّلت
فلم يَنأ منها جانبٌ فوق جانبِ
بَلغتَ بأدنى الحزم أبعدَ قُطرها
كأنّك منها شاهد كلَّ غائبِ

قصيدة في يوم نيروز:

قال: والتي أهداها له يوم النيروز قصيدته التي فيها:

حُميدُ يا قاسم الدُّنيا بنائله
وسيفه بين أهل النكث والدِّينِ
أنت الزّمان الذي يجري تصرّفه
على الأنام بتشديد وتليينِ
لو لم تكن كانت الأيّام قد فَنيت
والمكرماتُ وماتَ المجد مُذ حينِ
صوَّرَك الله من مجدٍ ومن كرمٍ
وصوَّر النَّاسَ من ماء ومن طينِ

أبيات في أبي دُلف:

نسختُ من كتاب بخطّ محمد بن العبّاس اليزيديّ: قال أحمد بن إسماعيل بن الخصيب الكاتب: دخل عليٌّ بن جبلة يوماً إلى أبي دُلف فقال له: هات يا عليُّ ما معك. فقال: إنّه قليل.

فقل: هاتِه، فكم من قليل أجودُ من كثير، فأنشده:

الله أجـرى من الأرزاق أكـثـرَها

على يديك فـشكراً يا أبا دُلَفِ

أعطى أبو دُلَف والرِّيحُ عـاصفـةٌ

حـتى إذا وَقَفَت أعطى ولم يقِفِ

أبو دُلَف يتطيّر من شعره:

قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم، فلمّا كان بعد مدّة دخل إليه، فقال له: هات ما معك فأنشده:

مـن مَـلَك الموتِ إلـى قـــــاسـم

رســـالـةٌ في بطن قِـــرطاسِ

يا فـارس الفُـرسـانِ يوم الوغى

مُـــرني بمَنْ شـــئتَ من النّاسِ

قال: فأمر له بألفي درهم، وكان قد تطيّر من ابتدائه في هذ الشعر؛ فقال: ليست هذه من عطاياك أيّها الأمير، فقال: بلغ بها هذا المقدارَ ارتياعُنا من تحمّلك، رسالةَ ملك الموت إلينا.

هجاء الهيثم بن عديّ:

أخبرني محمد بن عِمران الصيرفيّ قال: حدَّثنا الحسنُ بن عُليل العَنَزِيُّ قال: حدثني محمد بن عبدالله قال: حدَّثني عليّ بن جبلة العكوك المروزي قال: جاءني أبو يعقوب الخُرَيمي فقال لي: إن لي إليك حاجة. قلت: وما هي؟ قال: تهجو لي الهيثم بن عديّ.

فقلت: وما لك أنت لا تهجوه وأنت شاعر؟ فقال: قد فعلت، فما جاءني شيء كما أريد. فقلت له: كيف أهجو رجلاً لم يتقدّم إليّ منه إساءة، ولا له إليّ جرم يُحفظني؟ فقال: تُقرضني، فإني مليّ بالقضاء. قلت: نعم، فأمهلني اليوم فمضى وغدوت عليه فأنشدته:

للهيثم بن عديٍّ نسبة جمعت
آباءه فأراحتنا من العدد

اعدُد عدياً فلو مدّ البقاء له
ما عُمر النّاسُ لم ينقص ولم يزد

نفسي فداء بني عبدالمدان وقد
تلُّوه للوجه واستعلوه بالعمدِ

حتى أزالوه كرهاً عن كريمتهم
وعرفوه بذُلٍّ أين أصل عدي؟

يا ابنَ الخبيثةِ من أهجو فأفضحه
إذا هجوتُ وما تُنمى إلى أحدِ؟

هجاؤه يسبب طلاق امرأة الهيثم:

قال: وكان الهيثم قد تزوّج إلى بني الحارث بن كعب، فركب محمد بن زياد بن عُبيدالله بن عبدالمدان الحارثي، أخو يحيى بن زياد، ومعه جماعة من أصحابه الحارثيين إلى الرشيد، فسألوه أن يفرّق بينهما. فقال الرشيد: أليس هو الذي يقول فيه الشاعر:

إذا نسبت عديّاً في بني ثُعَلٍ

فقدّم الدالَ قبل العينَ في النّسبِ

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين. قال: فهذا الشعر من قاله؟ قالوا: هو لرجل من أهل الكوفة من بني شيبان يقال له: ذُهل بن ثعلبة، فأمر الرشيدُ داودَ بنَ زيدَ أن يُفرّقَ بينهما. فأخذوه فأدخلوه داراً وضربوه بالعصيّ حتى طلّقها.

مدحه عبدالله بن طاهر واستئذانه في الرحيل:

أخبرني هاشمُ بنُ محمد الخُزاعي قال: حدَّثنا عبدُ الله بن أبي سعد قال: حدَّثني محمدُ بنُ الحسن بن الخصيب قال: شخص عليّ بنُ جبلة إلى عبدالله بن طاهر والي خراسان، وقد مدحه فأجزل صلته، واستأذنه في الرّجوعِ، فسأله أن يقيم عنده، وكان برّه يتصل عنده، فلمّا طال مقامه اشتاق إلى أهله، فدخل إليه فأنشده:

راعه الشيبُ إذ نزل

وكفاه من العذَلْ

وانقضت مدّة الصّبا

فانقضى اللهوُ والغزلْ

قد لعمري دَمَلتُه

بخضابٍ فما اندملْ

فـــــابكِ لـلشـــــيب إذ بـدا
لا عـلـــى الـــرَّبـــعِ والـــطـلـــلْ

وصـــل الـــلـــه لـــلأمـــــ
ـيـــر عُـــرى الملك فـــاتصلْ

ملـك عـــــزمُـــــه الزمـــــان
نِ وأفـــــعـــــالـه الـدولْ

كـــــســـــرويّ بمَـجـــــده
يَـضـــرب الـضـــاربُ المثـلْ

وإلـــى ظِـلّ عـــــــــــزّه
يـلـجـــأُ الخـــائـف الوجِـلْ

كلُّ خَـلـق ســـــوى الإمـــــا
مِ لإنـعـــامـــــه خَـــــولْ

لـيـــتـــــه حين جـــادَ لـي
بـالـغـنـى جـــادَ بـالـقَـــفَـل

قال: فضحك وقال: أبيت إلاّ أن توحشنا. وأجزل صلته، وأذن له.

مدح حميد في أوّل رمضان:

أخبرني الحسنُ بن عليّ قال: حدَّثني أحمدُ بن أبي طاهر قال: حدَّثني أبو وائلة السدوسيُّ قال: دخل عليُّ بن جبلة العكوكُ على حميد الطُّوسيّ في أول يوم من شهر رمضان، فأنشده:

obeikandl.com

جـعل الله مـدخل الصـوم فـوزاً
لحـمـيـد ومـتـعـة في البـقـاءِ

فـهـو شـهـر الربيع للقـراء
وفـرق النَّدمـان والصـهـبـاءِ

وأنا الضَّـامنُ المليُّ لمن عـا
قـرها مـفطراً بطولِ الظَّمـاءِ

وكـأنِّي أرى النَّدامى على الخـمـ
ـفِ يُزجـو صـبـحـهم بالمسـاءِ

قـد طوى بعـضُـهم زيارة بعض
واستـعـاضـوا مصـاحـفاً بالغناءِ

يقول فيها:

بحـمـيـدٍ وأين مـثلُ حـمـيـد
فـخـرت طيّىء على الأحـيـاءِ

جـوده أظهـر السـمـاحـةَ في الأر
ضِ وأغنى المُقـوي عن الإقـواءِ

ملـكٌ يأمُـل العـبـاد نداه
مـثلَ مـا يأمُلون قَطر السـمـاءِ

صاغه الله مطعم الناس في الأر
ضِ وصـاغَ السـحـابَ للإسـقـاءِ

obeikandl.com

يمدحه في شوال:

قال: فأمر له بخمسة آلاف درهم، وقال: استعن بهذه على نفقة صومك. ثم دخل إليه ثاني شوال، فأنشده:

علّلاني بصفو ما في الدّنانِ
واتركا ما يقوله العاذِلانِ

واستبقا فاجع المنّية بالعيـ
ـشِ فكلٌّ على الجَديدين فاني

علّلاني بشربةٍ تُذهب الهَمّ
وتنفي سوارقَ الأحزانِ

وانفُثا في مسامعٍ سدّها الصو
م رُقى الموصليّ أو دَحمانِ

قد أتانا شوال فاقتبل العيـ
ـش وأعدى قسراً على رمضانِ

نِعم عون الفتى على نُوَب الدهـ
ـر سماعُ القيانِ والعِيدانِ

وكؤوسٌ تجري بماء كُرومٍ
ومطيُّ الكؤوس أيدي القيانِ

من عُقار تُميت كلّ احتشام
وتسُر النَّدمانَ بالنَّدمانِ

وكـــأنّ المزاج يقـــدحُ منهـــا
شـــرراً في ســبـائـك العِـقـيـانِ

فاشرب الرَّاح واعص من لام فيها
إنهـــا نعم عُـــدّة الفـــتـــيـــانِ

واصـــحـب الدَّهـر بارتجـال وحَلّ
لا تخف مـــا يجـــره الحـــادثانِ

حسب مستظهرٍ على الدَّهرِ ركناً
بحُـمـيـد رِداءً من الحـدثانِ

مـلك يـقـــــتـني المكارم كنـزاً
وتـراه مـن أكـــرم الفـــتـــيـــانِ

خُلقت راحـتـاه للجـود والبـأ
س وأمـــواله لشكر اللســـانِ

ملّكتـه على العـبـاد مـعـدٌّ
وأقـــــرّت له بـنو قـــــحطانِ

أريحيُّ النَّدى جـمـيل المحـيّـا
يده والسّـمـاح مـعـتـقـدانِ

وجـهـه مـشـرق إلى مـعـتـفـيـه
ويداه بالغـيث تنفـجـرانِ

جـعل الدَّهـر بين يومـيـه قـسـمـيـ
ـن بعُـرفٍ جـزل وحـرٍّ طعـانِ

فـإذا سـارَ بالخـمـيس لحـرب
كلَّ عن نصّ جـريه الخـافـقـانِ

وإذا مـــــــا هـززتـه لـنـوال
ضـاق عن رحب صـدره الأُفـقـانِ

غـــيث جـــدب إذا أقـــامَ ربيعٌ
يتـــغـــشّى بالســـيب كل مكانِ

يا أبا غـــانم بقـــيتَ على الدَّهـ
ـر وخلّدت مـا جـرى العـصـرانِ

مـــا نُبـــالي إذا عـــدَتك المنايا
من أصـــابت بكلكل وجـــرانِ

قـــد جـــعلنا إليك بعثَ المطايا
هـرَباً من زمـــاننـا الخـــوّانِ

وحـملنا الحـاجـات فـوق عـتـاق
ضـــامناتٍ حـــوائج الرُّكـــبـــانِ

ليس جـــود وراء جـــودك يُنتـــا
ب ولا يعـــتـفي لغـيـرك عـاني

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وقال: تلك كانت للصوم، فخفَّفت وخفّفنا، وهذه للفطر، فقد زدتنا وزدناك.

أحبته جارية رغم قبحه:

أخبرني عمِّي قال: حدَّثنا أحمدُ بنُ الطيّب السَّرخسيّ قال: حدَّثنا ابنُ أخي عليّ بن جَبَلة العكوك، قال أحمد: وكان عليّ جارنا بالربض هو وأهله، وكان أعمى وبه وضَح. وكان يهوى جارية أديبة ظريفة شاعرة وكانت تحبّه هي أيضاً على قبح وجهه وما به من الوضَح، حدَّثني بذلك عمرو بن بحر الجاحظُ.

قال عمرو: وحدَّثنني العَكَوَّك أنّ هذه الجارية زارته يوماً وأمكنته من نفسها حتى افتضّها. قال، وذلك عنيت في قولي:

ودمٍ أهدرت من رشإ
لم يُردِ عقلاً على هَدَرِهْ

حُميد يمنعه ثم يأذن له:

وهي القصيدة التي مدح بها أبا دُلَف، يعني بالدّم: دم البُضع. قال: ثم قصدتُ حُميداً بقصيدتي التي مدحته بها، فلمّا استؤذن لي عليه أبى أن يأذَن لي، وقال: قولوا له: أيَّ شيء أبقيت لي بعد قولك في أبي دُلَف:

إنما الدُّنيا أبو دُلَف
بين مَبداه ومحتضرِه
فإذا ولى أبو دُلف
ولَّت الدُّنيا على أثرهْ

فقلت: للحاجب: قُل له: الذي قلت فيك أحسن من هذاو فإن وصلَتني سمعته، فأمر بإيصالي، فأنشدت قولي فيه:

إنما الدُّنيا حُمَيد

وأياديه الجسامُ

فإذا ولَّى حُمَيد

فعلى الدُّنيا السَّلامُ

فأمر لي بمائتي دينار، فنثرتها في حجر عشيقتي، ثم جئته بقصيدتي التي أقول فيها:

دجلةُ تسقي وأبو غانمٍ

يُطعمُ مَن تسقي من النّاسِ

فأمر لي بمائتي دينار.

تغيّر الجارية التي أحبّته:

حدَّثني عمِّي قال: حدَّثني أحمدُ بن الطيب قال: حدثني ابن أخي عليِّ بن جبلة أيضاً: أنّ عمّه عليّاً كان يهوى جارية، وهي هذه القينة، وكانت له مساعدة، ثم غضبت عليه، وأعرضت عنه، فقال فيها:

تُسيءُ ولا تستنكرُ السوءَ إنّها

تُدلّ بما تبلوه عندي وتَعرِفُ

فمن أين ما استعطفتها لم ترقَّ لي

ومن أين ما جربتُ صبريَ يضعفُ

في ترك الضيافة:

أخبرني حبيب بن نصر قال: حدَّثنا عمرُ بن شبّة قال: تذاكرنا يوماً أقبح ما هُجي به النّاس في ترك الضيافة وإضاعة الضيف، فأنشدنا عليٌّ بن جبلة لنفسه:

أقـامـوا الدَّيدَبان على يَفـاعٍ
وقـالـوا لا تَـنـم لـلـدّيـدبـانِ

فـإن آنستَ شـخـصـاً مـن بعـيـد
فـصـفّق بالبنان على البنانِ

تراهم خـشـيـة الأضـيـاف خُرساً
ويـأتـونَ الـصـلاةَ بـلا أذانِ

حميد يعطيه مالاً خصّصه للصدقة:

أخبرني الحسنُ بنُ عليٍّ قال: حدثني محمدُ بن القاسم بن مهرويه قال: حدَّثني أبي قال: حدثني وهب بن سعيد المروزيُّ، كاتب حُميد الطُّوسيّ، قال: جئت حُميداً في أول يوم من شهر رمضان، فدفع إليّ كيساً فيه ألف دينار، وقال: تصدَّقوا بهذه. وجاءه ابنه أصرمُ فسلَّم عليه ودعا له، ثم قال له: خادمك عليٌّ بن جبلة بالباب، فقال: وما أصنع به؟ جئتني بأعمى تقابلني بوجهه في أول يوم من هذا الشهر. فقال: إنّه يجيد فيك القول. قال: فأنشدني بيتاً مما تستجيد له: فأنشده قوله:

حـيدي حَـيادِ فـإنّ غـزوةَ جـيشـه
ضـمنَت لجـائلةِ السّـباعِ عـيالهـا

فقال: أحسن. ائذنوا له، فدخل فسلَّم، ثم أنشده قوله:

إنـا أبـا غـــانم حُـــمـــيـــداً
غـــيث على المعـــتـــفين هـامـي

صـــوَّره الله ســـيفَ حَـــتف
وبـــاب رزق عـــلـــى الأنـــامِ

يـا مـــانعَ الأرضِ بـالعـــوالـي
والنَّـعم الجـــمـــة العـظامِ

ليس من السَـــوءِ في مَـــعـــاذ
من لـم يكـن منـك في ذِمـــامِ

ومـا تعـمّـدتُ فـيكَ وصـفـاً
إلا تقـــدَّمـــتـــه أمـــامـي

فـــقـــد تناهت بك المعـــالـي
وانـقـطـعـت مـــــدّةُ الـكـلامِ

أجِـــدَّ شـــهـــراً وأبِل شـــهـــراً
واسلم على الدَّهـر ألـفَ عـــامِ

قال: فالتفت إليَّ حُميد، وقال: أعطه ذلك الألف الدينار حتى يَخرج للصدقة غيره.

يتشفّع بحميد إلى أبي دُلَف:

حدَّثني عمِّي قال: حدَّثني يعقوبُ بن إسرائيل قال: حدَّثني أبو سُهيل عن سالم مولى حُميد الطوسيّ قال: جاء عليّ بنُ جَبَلة إلى حُمَيد الطُّوسيّ مستشفعاً به إلى أبي دُلَف، وقد كان غضب عليه وجفاه، فركب معه إلى أبي دُلَف شافعاً، وسأله في أمره، فأجابه واتصل الحديث بينهما وعليٌّ بن جبلة محجوب، فأقبَل على رجل إلى جانبه وقال: أكتب ما أقول لك، فكتب:

لا تتركني بباب الدّار مطّرحاً
فالحُرُ ليسَ عن الأحرار يحتجبُ

هبنا بلا شافع جئنا ولا سبب
ألستَ أنت إلى معروفك السببُ؟

قال: فأمر بإيصاله إليه، ورضي عنه ووصله.

المخزومي يتحرج من الإنشاء في حضرته:

أخبرني الحسنُ بنُ عليّ قال: حدَّثنا ابنُ مَهرُوَيه قال: حدَّثني أحمد بن مروان قال: حدَّثني أبو سعيد المخزومي قال: دخلت على حُميد الطوسي، فأنشدته قصيدة مدحتُه بها وبين يديه رجل ضرير، فجعل لا يمرّ ببيت إلاّ قال: أحسن قاتله الله! أحسن وحيه! أحسن لله أبوه! أحسن أيّها الأمير. فأمر لي حُمَيد بِبَدرة، فلمّا خرجتُ قام إليَّ البوّابون، فقلت: كم أنتم؟ عرِّفوني أوّلاً مَن هذا

المكفوف الذي رأيته بين يدي الأمير؟ فقالوا: عليُّ بنُ جبلة العكوك. فارفضضت عرقاً، ولو علمتُ أنّه عليّ بن جبلة لما جسُرت على الإنشاد بين يديه.

رواية أخرى في شروط المأمون لقبول مدحه له:

أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدَّثنا محمدُ بنُ القاسم بن مهرُويه قال: حدَّثنا أحمدُ بنُ عُبيد بن ناصح قال: كلَّم حُميد الطُّوسيّ المأمون في أن يدخل عليه عليُّ بنُ جبلة، فيسمعَ منه مديحاً مدحه به، فقال: وأيّ شيء يقوله فيَّ بعد قوله في أبي دُلَف:

إنّما الدُّنيا أبو دُلَفٍ
بين مَغزاه ومحتضرِهْ

فإذا وَلّى أبو دُلَف
ولَّتْ الدُّنيا على أثرِهْ

وبعد قوله فيك:

يا واحد العَرَب الذي
عزّت بعزّتِه العَرَبْ

أحسن أحواله أن يقول فيَّ مثل ما قاله في أبي دُلَف، فيجعلني نظيراً له. هذا إن قدَر على ذلك ولم يقصر عنه، فخيَّروه بين أن أسمع منه، فإن كان مدحهُ إيّاي أفضل من مدحِهِ أبا دُلَف

وصلته، وإلاّ ضربتُ عنقه أو قطعت لسانه، وبين أن أُقيله وأعفيه من هذا وذا. فخيَّروه بذلك، فاختار الإقالة.

يمدح حميداً الطُّوسيّ بخير من مدحه أبا دُلَف:

ثم مدح حميداً الطوسي، فقال له: وما عساك أن تقول فيَّ بعدما قلته في أبي دُلَف، فقال: قد قلت فيك خيراً من ذلك قال: هات، فأنشده:

دجلة تَســـــقي وأبو غـــــانمٍ
يُطعمُ من تســـقي من النَّاسِ

النَّاسُ جـــسمٌ وإمـــامُ الهُـــدى
رأس وأنـــتَ الـــعـــينُ فـــي الـــراسِ

فقال له حميد: قد أجدتَ، ولكن ليس هذا مثل ذلك، ووصله.

لا يبلغ شأو الخريميّ في الرثاء:

قال أحمد بن عُبيد، ثم مات حُميد الطُّوسيّ، فرثاه عليّ بن جَبَلة، فلقيتُه، فقُلت له: أنشدني مرثيتك حُمَيداً، فأنشدني:

نَعـاء حُـمـيـداً للسـرايا إذا غـدَت
تُذاد بـأطـراف الـرِّمـــــاحِ وتوزعُ

حتى أتى على آخرها، فقلت له: ما ذهب على النحو الذي نحوتَه يا أبا الحسن، وقد قاربته وما بلغته. فقال: وما هو؟ فقُلت: أردتُ قول الخُزَيمي في مرثيته أبا الهَيذام:

وأعـــددتُه ذخـــراً لكلّ مُلمـــة
وســهم المَنايا بالذخـائرِ مُـولعُ

فـقـال: صدقت والله، أمـا والله لقـد نحـوتُه وأنا لا أطمع في اللَّحاق به، لا والله ولا امرؤ القيس لو طلبه وأراده ما كان يطمع أن يقاربه في هذه القصيدة.

غضب المأمون عليه:

أخبـرني عمِّي قـال: حدَّثنا أحمدُ بنُ أبي طاهر قـال: حدَّثني ابنُ أبي حـرب الزعفرانـيّ، قـال: لمّا بلغ المأمـونَ قـول عليّ بن جَبَلة لأبي دُلَف:

كلُّ مـن فـي الأرض مـن عَـــرَب
بـين باديـه إلـى حـــضـــرهْ
مـســتـعـيـر منكَ مكرمـةً
يكتـسـيـهـا يومَ مـفـتـخَـرهْ

غـضب من ذلك، وقـال: اطلبـوه حـيث كـان، فطُلب فلم يُقـدَر عليـه، وذلك أنّه كـان بـالجَـبَل، فلمـا اتصل به الخـبـر هـرب إلى الجـزيرة، وقد كانوا كتبوا إلى الآفاق في طلبه، فهرب من الجزيرة أيضـاً، وتوسّط الشّـام فظفـروا به، فـأخذوه، وحـملوه إلى المأمـون، فلمّـا صـار إليـه قـال لـه: يا ابن اللَّخناء، أنتَ القـائل للقـاسـم بن عيسى:

كلُّ مـن في الأرض مـن عَـــــرَب

بـين باديـه إلـى حـــــضـــــرهْ

مـــســـتـــعـــيـــر منكَ مكرمـــةً

يكتـسـيـهـا يومَ مـفـتـخَـرهْ

جعلتنا مِمّن يستعير المكارم منه! فقال له: يا أمير المؤمنين، أنتم أهل بيت لا يقاسُ بكم أحد؛ لأنّ الله جلَّ وعزَّ فضَّلكم على خلقه، واختاركم لنفسه، وإنّما عنيت بقولي في القاسم أشكال القاسم وأقرانه. فقال: والله ما استثنيتَ أحداً عن الكلّ، سُلّوا لسانه من قفاه.

أخبرني الحسنُ بنُ عليّ قال: حدَّثنا محمدُ بن موسى قال: وحدَّثني أحمد بنُ أبي فَنَن: أنَّ المأمون لمّا أُدخِل عليه عليّ بنُ جَبَلة قال له: إنِّي لست أستحلُّ دمَك لتفضيلك أبا دُلَف على العرب كلّها وإدخالك في ذلك قريشاً، وهم آل رسول الله ﷺ وعترتُه، ولكنِّي أستحلّه بقولك في شعرك وكفرك حيث تقول القول الذي أشركت فيه:

أنت الذي تنزل الأيّامَ منزلهـــا

وتنقل الدهرَ من حال إلى حالِ

وما مددْتَ مَدى طَرف إلى أَحدٍ

إلاّ قـــضـــيتَ بأرزاق وآجـــالِ

كذبتَ يا ماصَّ بَظْر أُمِّه، ما يقدر على ذلك أحد إلا الله، عزَّ وجلَّ، الملك الواحد القهّار. سُلّوا لسانه من قفاه.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً

obeikandl.com